مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا المجلد 06 العدد01 جانفي2023 ص ص226ـ248
ر س ل و (ISSN): 2602ـX618 / ر س ل و إ (E-ISSN): 2710ـ8031

آراء وملاحظات الرحالة البريطاني توماس شو حول حياة سكان حواضر الجزائر خلال القرن الثامن عشر الميلادي(1720ـ1732)

Opinions and observations of the British traveler Thomas Shaw About the daily life in the cities of Algeria during the eighteenth century

مراد تجنانت[1]♦، محمد زرقوق[2]

جامعة علي لونيسي- البليدة 02 [1] mourad.tadj@gmail.com

جامعة الجيلالي بونعامة –خميس مليانة [2]m.zerkouk@univ-dbkm.dz

تاريخ الإرسال: 2022/05/10 تاريخ القبول: 2022/11/10 تاريخ النشر: 2023/01/31

الملخص باللغة العربية:

تسعى هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على بعض الجوانب من مظاهر الحياة الاجتماعية، والثقافية للجزائريين الذين كانوا يقطنون في الحواضر الكبرى خلال القرن الثامن عشر الميلادي، بالاعتماد على ما كتبه الرحالة البريطاني توماس شو الذي أقام في مدينة الجزائر مدة اثنا عشر سنة، زار خلالها كثيرا من المدن الجزائرية. فهو يعتبر شاهد عيان، ومصدرا رئيسيا للمعلومات التي يقدمها حول نظام التعليم، وأشكال العمران، وذهنية المجتمع الجزائري، وبعض الجوانب من الحياة اليومية للأسر الجزائرية.

الكلمات المفتاحية: توماس شو؛ الجزائر؛ الحواضر؛ عادات، تعليم.

Abstract: This study seeks to shed light on some aspects of the social and cultural life of the Algerians who lived in the major metropolises during the eighteenth-century AD, based on what was written by the British traveler Thomas Shaw, who resided in the city of Algiers for twelve years, during which he visited many of the Algerian cities. He is considered an eyewitness, and a major source of information he provides about the education system, forms of urbanization, the mentality of Algerian society, and some aspects of the daily life of Algerian families.

♦ المؤلف المرسل

Keywords: Thomas Shaw; Algeria; Metropolitan; customs; education.

مقدمة:

اهتمت كثير من المصادر الأجنبية بتاريخ الجزائر، منها ما قدمه الرحالة البريطانى توماس شو (Thomas Shaw (1694-1751)) في كتابه "رحلة الى إيالة الجزائر" (Voyage dans la régence d'Alger) الذي حاول خلاله وصف حياة الجزائريين في العهد العثماني. وتبرز أهمية هذا الكتاب في أن صاحبه كان كثير الأسفار إلى البلاد الإسلامية مثل سوريا ومصر والأردن، وهو من خريجي جامعة أكسفورد، يحسن العديد من اللغات منها العربية والعبرية واليونانية؛ وقد أقام في الجزائر مدة أثني عشر سنة (1720-1732) زار خلالها عدة مناطق من البلاد، وجمع في زياراته ملاحظات كثيرة عن مختلف الجوانب الطبيعية، والسياسية، والاجتماعية، والثقافية عن الجزائر خلال الربع الأول من القرن الثامن عشر، وهي الفترة التي بدأت فيها شخصية الجزائر السياسية تتميز في علاقاتها بالدولة العثمانية ومع الدول الأوروبية، كما بدأت تتبلور شخصية المجتمع الجزائري بمختلف فئاته وعناصره.

يطرح هذا البحث إشكالية واقع المجتمع الجزائري من خلال منظور غربي، مركزين على ما لاحظه هذا الرحالة في الحواضر التي نقصد بها المدن الكبرى، وفي مقدمتها مدينة الجزائر. وسنناقش آراءه معتمدين على بعض المصادر المعاصرة لنفس الفترة المدروسة وبعض الدراسات الحديثة، التي تناولت جانبا من جوانب حياة السكان خاصة في مدينة الجزائر.

من الأعلام الجزائرية التي عاصرت توماس شو العالم الرحالة الحسين بن محمد السعيد الورثلاني (1125-1193هـ/1713-1779م) صاحب كتاب نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار المشهورة بالرحلة الورثلانية الذي قدم في صفحات من كتابه صورة تاريخية لتراجم بعض أعلام الجزائر خاصة من العلماء والصوفية، وكتاب المرآة لحمدان خوجة الذي يعد من المصادر التي سلمت من التلف الذي طال جزءا هاما من مصادر تاريخ الجزائر. وقد تناول في فصوله الأولى جوانب من عادات ساكنة بلاد الجزائر من بدو، وسكان السهول، وبلاد القبائل، والمتيجة، والجهة الغربية للبلاد، وسكان مدينة الجزائر[1]

1 حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، الوكالة الوطنية للنشر والاشهار، الجزائر، 2005. ص ص 15- 67.

ومن الدراسات التي تناولت الجانب الاجتماعي لمجتمع المدينة في العهد العثماني خاصة في حواضرها الكبرى، نذكر الباحثة سكينة ميسوم في مؤلفها: مدينة الجزائر في العهد العثماني، المسكن والمدينة، تعرضت لجوانب من عمران المدينة وتطورها وخططها.[2] والباحث بلبراوات بن عتو في رسالة الدكتوراه التي تحمل عنوان المدينة والريف بالجزائر في أواخر العهد العثماني، وقد تعرض في الباب الأول إلى المدينة الجزائرية في أواخر العهد العثماني.[3]

1- التعريف بالدكتور توماس شو وكتابه حول رحلته الى إيالة الجزائر:

اشتهر الدكتور توماس شو (Thomas Shaw) أنه من أكبر الرحالة الأوربيين في شمال افريقيا خلال القرن الثامن عشر. ولد حوالي سنة 1692،[4] بكيندال (Kendal) الواقعة في الشمال الغربي من إنجلترا. تابع دراسته في جامعة أوكسفورد حيث تعلم اللغة العبرية واللغة العربية، إلى جانب اليونانية واللاتينية. كان رجل دين في الكنيسة الأنجليكانية، وعين سنة 1720 أسقفا في القنصلية البريطانية بالجزائر. ورغم منصبه في الكنيسة فقد اهتم اهتماما خاصا بالآثار والتاريخ الطبيعي، وخاصة علم النبات وعلم الفلك. عين عضوا في جمعية لندن الملكية (Royal Society of London for the Improvement of Natural Knowledge)، وأجرى مراسلات ولقاءات مع عدة علماء منهم الفلكي إدموند هالي (Edmund Halley).[5]

أمضى شو مدة اثنا عشر سنة (من 1720 إلى 1732)، في الترحال والتنقل بين الجزائر، وتونس، ومصر وفلسطين، والأردن، وسوريا، يجمع المعلومات في مختلف المجالات الجغرافية والمناخية والإثنوغرافية، ويدون الملاحظات، ويراسل العلماء والجمعية الملكية التي كان عضوا فيها، حيث كان يحب معرفة كل شيء وبتعمق.

---

2 Sakina Missoum, Alger à l'époque Ottmane –LA Médina et la Maison Traditionnelle, INAS, Alger, 2003. p. 124.

3 بلبراوات بن عتو، المدينة والريف بالجزائر في أواخر العهد العثماني، رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة وهران، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم التاريخ والآثار، 2007-2008، ص ص 32-103.

4 تذكر مصادر أخرى أنه ولد سنة 1693، وأخرى سنة 1694. (أنظر: Zehor Zizi, Thomas shaw au Proche-Orient, 1721-1722: élucidation et défense des Textes sacrés, in:XVIIe et XVIIIe, **Revue de la société d'études anglo-américaines des XVIIe et XVIIIe siècles**. N°67, 2010. L'attrait de l'Orient/The Call of the East. p. 22, note n°1).

5 نفس المرجع، ص23.

كان شو صارما للغاية في طريقة جمع المعلومات وتقديم الملاحظات حولها، فقد اعتمد منهجا علميا في رسم الخرائط وفق واقع الطبيعة وما ورد في كتب الجغرافيا القديمة، وبنى دراسته المناخية على النباتات الطبيعية والإنتاج الزراعي والحيواني.[6] وكان حذرا جدا من الأساطير والخرافات ويعتبرها غير جديرة بالتفكير ويتحقق من كل الملاحظات التي يجمعها ويسجلها، ولا يريد أن يترك أي شيء للصدفة، كما كان لا يتردد في الاستعانة بعلماء أكسفورد، وما توفر له من كتب ووثائق في مكتبات رجال الدين الفرنسيين،[7] واستفاد من كتب ومراجع المؤلفين القدامى، والجغرافيين المسلمين في العصر الوسيط.[8] قدم وصفا مفصلا للمدن والمناطق التي زارها من خلال علاقتها بالغطاء النباتي و النشاط الفلاحي وتقاليد الطبخ و اللباس وثروات الأرض وهندسة المدن والمنازل والمعتقدات والمناسبات الثقافية و غيرها من مشاهداته.[9]

بعد رحلاته عاد إلى إنجلترا واستقر بأكسفورد وتوفي بها سنة 1751م، تاركا منتوجا علميا، ومصدرا هاما للعالم عامة والجزائر خاصة، استوحاه من تجاربه ورؤيته أملاها عليه ذكاؤه وحب اطلاعه،[10] جسد هذا المنتوج في كتابه الذي نشره في طبعته الأولى باللغة الإنجليزية بأكسفورد سنة 1738 تحت عنوان: Travels or observations relating to serval parts of Barbary[11] and the Levant، ثم أثري الكتاب بإضافة جاءت

---

6 كشرود حسان، بايلك الشرق دراسة طبيعية وزراعية من خلال الرحالين بايسونيل ودي فونتين والدكتور توماس شو، في قضايا تاريخية، ع06، 1483هـ/2017م. ص 51.

7 Nedjma Benachour, Constantine de la période ottomane dans les récits de voyage de Léon l'Africain et Thomas Shaw, in: **Revue des sciences humaines**, n°29, juin 2008, Université Mantouri, Constantine, Algérie 2008. p. 29.

8 Doris Bages, Recherches sur la topographie urbaine de Cirta-Constantine dans l'Antiquité, thèse de Doctorat en Archéologie,sous la direction de Pierre Garmy, Université Montpelier III – Paul Valéry, Arts et Lettres, Langues et Sciences Humaines et Sociales. (s.d.), p. 28.

9 Benachour, op.cit., p. 29.

10 كشرود ، المرجع السابق، ص 51

11 كانت كلمة باربار ي Barbary في بداية القرن الثامن عشر، تعني المناطق الشمالية من المغرب العربي، أي الموانئ والمناطق المحاذية لها، أما مناطق الجنوب والصحراء فقد كانت مازالت مجهولة عند الأوربيين. وعلى المستوى الجغرافي والسياسي آنذاك فإن مدلول هذه الكلمة غير ثابت، حيث يقصد به أحيانا الأيالات التركية الجزائر وتونس وطرابلس، وأحيانا يقصد به كل افريقيا الشمالية بما في ذلك المغرب الأقصى. (انظر:زيزي ، المرجع السابق ،ص22.)

تحت عنوان: (A Supplement to a Book entituled Travels or Observations &c. wherein some Objections lately made against it, are fully considered and answered with several additional Remarks and Dissertations), نشرت سنة 1746. صدر ت الطبعة الثانية من الكتاب في لندن سنة 1757، وقد أثراها المؤلف بالإضافة السابقة الذكر، وبعض الملاحظات والردود على بعض الانتقادات التي وجهت له في الطبعة الأولى، ثم صدرت الطبعة الثالثة في إدنبرة (Édinburgh) سنة 1808.[12]

ترجم الكتاب إلى عدة لغات، حيث صدر لأول مرة باللغة الفرنسية في لاهاي سنة 1743، تحت عنوان: Voyages de Monsr. Shaw, dans plusieurs provinces de la Barbarie et du Levant contenant des observations géographiques, physiques, philologiques et mêlées sur les royaumes d'Alger et de Tunis, sur la Syrie, l'Egypte, et l'Arabie Pétrée. Avec des cartes et des figures, وقد صدر في جزئين، ولم يرد اسم المترجم في الكتاب. وصدرت الطبعة الثانية منه سنة 1753، وهي تضم بطاقات وألواح للحيوانات والنباتات،[13] ثم صدرت الطبعة الثالثة في باريس سنة 1830، تحت عنوان: Voyage dans la régence d'Alger, ou description géographique, physique, philologique, etc., de cet état par le Dr. Shaw. وقد ترجمه جون ماك كارتي (J. Mac. Carthy) عضو في الجمعية الجغرافية لباريس.[14] كما ترجم إلى الألمانية سنة 1765، وإلى الهولندية سنة 1773.

جاء هذا الكتاب ليلبي متطلبات العلم والمعرفة وخاصة معرفة الأرض والطبيعة التي كانت تحظى بالأولوية في برنامج الجمعية الملكية في لندن، ولذلك وضع شو مجموعة من الخرائط الجيولوجية والأثرية المرتبطة بعمله، ورتبها بعناية لتلبية متطلبات الجمعية.[15] ونظرا للمعلومات التي جمعها ودونها المؤلف، فإن كتاب شو كان يعتبر في نهاية القرن الثامن عشر وحتى بعد ذلك التاريخ مرجعا ضروريا بل وبمثابة كتاب مقدس لكل مهتم

12 زيزي، المرجع السابق ،ص ص22، 23.

13 عمران عبد الحميد، قبائل الشرق الجزائري: قراءة في بعض العادات والذهنيات حسب الدكتور توماس شو (Thomas Shaw) من خلال كتابه (رحلة في أيالة الجزائر)، في **المجلة التاريخية الجزائرية**، جامعة محمد بوضياف بالمسيلة، ع 05، ديسمبر 2017. ص57.

14 كشرود ، المرجع سابق، ص 52.

15 عمران عبد الحميد، المرجع السابق، ص 57.

بمنطقة شمال افريقيا، لأنه جاء نتيجة اثنا عشر سنة من الإقامة في قنصلية بريطانيا بالجزائر.[16]

وفي مقارنة بين النسخ التي بين أيدينا، فإن الطبعة الأولى الصادرة باللغة الإنجليزية سنة 1738، تتكون من 600 صفحة، وقد قسمها المؤلف إلى أربعة أقسام هي:

القسم الأول يتكون من ثمانية فصول، وهو خاص بالأيالة الجزائرية عنوانه:

geographical observations relating to the kingdom of Algiers.

القسم الثاني خصصه المؤلف للأيالة التونسية، وهو يتكون من خمسة فصول، عنوانه:

geographical observations relating to the kingdom of Tunis.

القسم الثالث فهو مجموعة الملاحظات والآراء التي جمعها المؤلف حول التاريخ الطبيعي، ومعلومات عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للأيالتين، وهو يتكون من أربعة فصول عنوانه:

Physical and miscellaneous observations & C. or an essay towards the natural history & C. of the kingdoms of Algiers and Tunis.

القسم الرابع فقد خصصه المؤلف لبلاد المشرق، وهو يتكون من خمسة فصول، عنوانه:

Geographical, Physical and Miscellaneous observations, relating to Syria, &c. Egypt, and Arabia Petræa.

بالنسبة للنسختين المترجمتين إلى اللغة الفرنسية فإن النسخة الصادرة سنة 1743، والتي غاب فيها اسم المترجم، فهي تتكون من جزأين، الجزء الأول خاص بالجزائر وتونس مع الاحتفاظ بنفس الفصول التي وردت في الطبعة الإنجليزية الأصلية، والجزء الثاني خاص بدول المشرق التي زارها المؤلف. أما النسخة الصادرة في سنة 1830، فقد خصصها المترجم جون ماك كارثي (J. Mac. Carthy) لأيالة الجزائر فقط، حيث جمع فيها القسم الأول من النسخة الصادرة بالإنجليزية وأضاف إليها الملاحظات والآراء التي وردت في القسم الثالث منها، وهكذا صدرت هذه النسخة في حوالي أربعمائة صفحة، وتضم

16 زيزي، المرجع السابق، ص ص23، 22.

عشرة فصول. وقد اعتمدنا في هذه الدراسة على هذه النسخة لأنها مكتوبة بطريقة أكثر وضوحا من النسخة الإنجليزية ومن النسخة الفرنسية الصادرة سنة 1743.

يبدو من خلال المعلومات الواردة في ثنايا الكتاب أن المؤلف جال الجزائر من شرقها إلى غربها، حيث دون ملاحظاته عن المجتمع الجزائري وعلاقاته وجغرافية المنطقة وطبيعتها، وضبط أنواع الحيوانات والنباتات، كما وصف الساحل الجزائري من الغرب إلى الشرق، وتحدث عن المدن الداخلية مثل قسنطينة التي حل بها سنة 1728، وتلمسان ووهران والشلف ومنطقة جرجرة وسواحل عنابة.

سنحاول في هذا العمل تسليط الأضواء على جانب من كتاب توماس شو المتعلق ببعض جوانب الأوضاع الاجتماعية في المدن الجزائرية، خاصة حاضرة البلاد مدينة الجزائر مع محاولة إبراز قيمة المعلومات التي قدمها القس توماس شو، مع تحليلها ونقدها ومقارنتها ببعض الرحلات الأوربية التي زار أصحابها البلاد، ونجد مادته في الفصل الذي يحمل عنوان في العلوم والفنون والصناعات والأخلاق والعادات والتقاليد واللباس وغيرها من الجوانب الاجتماعية الفنية والعلمية.[17]

2- وصف شو لجوانب في ذهنية وسلوك المجتمع الجزائري.

1.2- الذكاء ونقص الحافز.

وصف شو السكان بأنهم أذكياء الأمر الذي يؤهلهم لخوض مجالات مختلف العلوم مثل كل البشر، لكنه لاحظ عليهم ضعف الإرادة ونقص الحافز الذي يدفعهم للإقدام على مواصلة الدراسة والبحث؛ وحسب رأيه فإنهم لو تخلوا عن هذه النظرة السلبية فأنهم سيحققون نتائج ايجابية في المجال العلمي.[18] ويؤكد الاستاذ أبو القاسم سعد الله ضعف مستوى التعليم، فإذا كانت المدرسة الابتدائية تعد مجتمعا متعلما تقل فيه الأمية، فإن التعليم في المستويات الأعلى، لم يساير العصر[19]. ويضيف حمدان خوجة في نفس

17 Thomas Shaw,Voyage dans la régence d'Alger,ou Description géographique, physique, philologique, etc. de cet état, par le Dr. Shaw. Traduit de l'anglais... par Traducteur Jacques Mac Carthy, Éditeur:Marlin,Paris 1830.p.107.

18 نفس المصدر، ص 81.

19 أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر القافي، ج 1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998. ص 279.

السياق أن للجزائريين خيالا خصبا وأفكاراً منظمة، وهم يدركون الأمور بكيفية سريعة فلا يصعب عليهم استيعاب أي عمل يدوي أو آلي.[20]

2.2- الاعتقاد بالخرافات والتنبؤات.

يؤمن عموم ساكنة الجزائر سواء في الحواضر والأرياف والبوادي بالسحرة والعرافين والكهنة، ويقدسون قبور أوليائهم، ويعتقدون أن لبعض الأولياء قدرات وكرامات خارقة،[21] التي نسِبتْ حتى للنبي (صلى الله عليه وسلم)، منها الاتصال بالله عز وجل،[22] ويرى حمدان خوجة أن السلطة العثمانية منحت صلاحيات مطلقة لعائلات المرابطين لما لهم من سلطان على العباد ففتحت لهم أبواب الامتيازات لاكتساب ثقة السكان.[23] ومن الدجالين من كان يلفظ النار من فمه بعد أن يخفي يديه ورأسه في برنوسه،[24] ويستعين بهم الناس في حالات خاصة لمعالجة الامراض ومعرفة الغيب. يحمون أنفسهم من الشرور بما يعرف بالخامسة، و:"الحروز" ونحر شاة أو نعجة يتم ردمها في التراب، وشرب دمها، وحرق صوفها أو ذبح ديك يحرق ريشه؛ وإيمانهم راسخ بالملائكة والجن. وكثير منهم يعتقد ان بعض أمراضهم سببها أساءتهم لهم، فيقدمون القربان لنيل رضاهم واتقاء أذاهم.[25] تكلم أبو القاسم سعد الله عن أدعياء الولاية، فيطلبون الهدايا من السلطة، متورطين في الفساد، وبعض رجال الدولة يشترون صمت هؤلاء الأدعياء بالتغاضي على انحرافهم.[26]

يخبرنا شو بأن كثيراً من "المحمديين" (يقصد المسلمين) يصدِّقون تنبؤات أوليائهم، منها أنه سيأتي يوم تعود فيه النّصرانية الى كل البلدان التي دخلها "الحشاشون والأتراك"، ويعني بهم المسلمين، لهذا السبب فهم يغلقون أبواب مدنهم يوم الجمعة من الساعة العاشرة صباحا الى منتصف النهار وهو الوقت الذي يعتقدون أنه ستحدث فيه

---

20 حمدان خوجا، المصدر السابق. ص 66.

21 أنظر مثلا الكرامات والخوارق التي ينسبها للأولياء، الحسين بن محمد الورثيلاني، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار المشهورة بالرحلة الورثلانية، تصحيح محمد بن أبي شنب، مطبعة بيير فونتانا الشرقية، الجزائر، 1326ه/1908م. ص ص 49، 50، 51.

22 يذكر القس شو مثالا في الغرب الجزائري عند زيارته لخليفة معسكر. (نفس المصدر، ص 138).

23 حمدان خوجا ، المصدر السابق، ص ص72، 73.

24 كان هذا الولي المبجل عند السكان المقيم قرب سطيف يعرف بسيدي عاشور من قبيلة تعرف بني عامر. (شو، المصدر السابق، ص ص139- 140).

25 شو، نفس المصدر ص ص 136-137.

26 سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص470.

"الواقعة" يقصد قيام الساعة.[27] ويضيف شالر في معنى يكاد يكون متطابقا لكلام شو أن أبواب المدينة تُغلق عند الغروب وتفتح عند الشروق تحسبا لغزو جيش مسيحي يستولي على مدينتهم في يوم جمعة، يرتدي جنوده زيا أحمر.[28] غير أن تفسيرات توماس شو ووليام شالر لأسباب غلق الأبواب كل يوم من المغرب الى الشروق ويوم الجمعة تبدو واهية، فهي أقرب الى الأساطير والتنبؤات التي تسري وسط عوام النّاس، والأقرب الى منطق العقل والحقائق التاريخية أن الجانب الأمني هو العامل الرئيسي لغلق أبواب المدينة، ففي يوم الجمعة يتجه سكان المدينة لأداء الصلاة في الجوامع، وفي مثل هذه الوضعيات قد تتعرض المدينة لهجوم من أطراف مناوئة سواء من أهل البلد، أو من قبائل متمردة، أو من طرف أجنبي أوربي معادي. ومعروف أن الجزائر كانت في حالة حرب شبه دائمة مع الدول الأوربية؛ وهناك احتمال استغلال الأسرى الأوروبيين لتراخي الحراسة في مثل هذه الأوقات للفرار؛ لهذا تقوم سلطات المدينة بغلق حتى حمامات النصارى.[29]

3.2- نظرة الجزائريين للطب عموما والطب الحديث خاصة.

يرى شو أن كثيراً من المسلمين أو "المحمديين" كما يسميهم لهم إيمان جازم بالقضاء والقدر، حتى أنهم يرفضون كل أنواع النصائح الطبية ويمتنعون عن تناول كل أنواع الأدوية بإصرار وعناد، وبعضهم يستهزئ بالنصائح الطبية[30] ويفضلون العلاج التقليدي.[31] وملاحظته أقل سوداوية مما سجله وليام شالر في القرن 19م الذي يدعي أن الطب لا يوجد من يدعيه من السكان — يقصد الطب الأوربي— باستثناء المشعوذين وكتاب الحروز.[32] ويستعين السكان بمن يعرف عندهم بالطالب، ويعتقدون أنه صاحب قدرات خارقة في اكتشاف الأسرار وفك رموز الطلاسم والقيام بمختلف أنواع الرقى والتعويذات.[33] بينما نجد الرحالة الألماني أرنست هابنسترايت يُقدم شهادة مغايرة فسكان

27 شو، المصدر السابق، ص 143.

28 وليام شالر ، مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر 1816-1924، تعريب وتعليق وتقديم اسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982. ص 98.

29 ميسوم، المرجع السابق، ص ص 131، 130.

30 شو، نفس المصدر، ص 81.

31 نفس المصدر، ص 82 فما بعدها.

32 شالر، المصدر السابق، ص 81.

33 شو، المصدر السابق، ص 89.

الجزائر يحترمون الأطباء أو المعالجين بالأعشاب، ويقدرون مهنتهم؛ ومنهم من كان يستعين بخدمات بعض الأطباء الأوربيين الزائرين للبلاد.[34]

4.2- أخلاق الحضر ونظرتهم اتجاه الأجانب. الذهنية.

عن أخلاق السكان يقول أنهم مهذبون و متمدنون، يميز سلوكهم حسن اللياقة و المجاملة و لم يكتشف حتى أعراض التعصب الديني أو الكره للأجانب، إنهم يواظبون على القيام بواجبات دينهم دون رياء أو تصنع ويضيف قائلا: "إنني أعرف جيدا أن هذه الصورة التي أرسمها للجزائريين لا تتفق مع الصور التي رسمها لهم كتاب آخرون و أنها تناقض الرأي العام الشائع في أروبا و أمريكا عنهم".[35] يقول الكاتب أن السكان من طبيعتهم الابتعاد عن الأجانب المسيحيين و احتقارهم و التحفظ منهم،[36] غير أن وليم شالر في القرن التاسع عشر يقدم صورة مغايرة عن سلوك حضر الجزائر تجاه الأجانب فهي تتسم بحسن المعاملة.

3- اهتمام سكان الحواضر بتعليم أبنائهم.

يسجل شو اهتمام ساكنة المدن بتعليم أبناءهم من الذكور[37] خاصة في سن العاشرة.[38] من الضروري أن التأكيد بأن التعليم كان يلقى الدعم بالإمكانيات المادية اللازمة [39]من طرف المحسنين الأثرياء ويستفيد من جمع الصدقات ومن أموال الأحباس

---

34 يوهان أرنست هابنسترايت(Johann Ernst Hebenstreit) ، رحلة العالم الألماني: ج. أوهابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس (1145هـ/1732م)، ترجمة وتقديم وتعليق ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، تونس 2008. ص ص 56-57.

35 شالر، المصدر السابق، ص 80.

36 شو، المصدر السابق، ص 79.

37 يذكر شالر أن البنات يلتحقن بالمدارس مثل الذكور ولهن معلمات من النساء. (انظر: شالر، المصدر سابق، ص 82).

38 بينما يجعل شالر سن التحاق الأطفال بالمدارس في القرن 19 ما بين السن الخامسة والسادسة فصاعدا، مع موافقته شو في كثرة المدارس في الحواضر. (انظر: شالر، المصدر السابق، ص 82).

39 يجب التنبيه أن مستوى التعليم لم يكن يواكب تطورات مناهج التعليم الحديثة، و بقي في صورته التقليدية مقارنة بما كانت عليه في أوربا، ويذكر توماس شو أن الكتابة كانت على الألواح بينما كان التلاميذ الأوربيين يكتبون على الأوراق، ويحفظ الطالب بعض القرآن و يتعلم بعناية قواعد الإسلام، و القليل من المتفوقين ممن ساعدته الظروف يواصل التعليم ولا يقرأ إلا القرآن و شيء من التفسير يضاف إليها شيء من الجغرافيا و بعض الكتابات التاريخية غير المنسجمة التافهة حسب وصفه حول التاريخ الحديث و قارن بين التلاميذ الجزائريين و التلاميذ في أروبا الذين يكتبون على الأوراق. (انظر: شو، المصدر السابق، ص ص 78، 79).

والأوقاف؛ يؤكد ذلك المؤرخ أبو القاسم سعد الله بقوله أن العلم كان من شؤون المجتمع وليس من شؤون الحكومة، حرا بمفهوم الحرية عندنا اليوم يشترك فيه الرسمي وغير الرسمي. فالأمة بأسرها تساهم في تعليم أطفالها، ويضيف أن العثمانيين، حكاما وجنودا وكراغلة شاركوا بإمكانياتهم في إقامة مؤسسات التعليم وقتئذ. ووفروا الكتب ورتبوا الرواتب للمدرسين.[40] وهو ما تتفق عليه البحوث التاريخية الجزائرية؛[41] أما مساهمة الأولياء في أجور المعلمين مقابل مهامه التعليمية، فيقدرها شو بنحو فلسين إثنين في الأسبوع عن كل تلميذ.[42]

يتعلم الأطفال القراءة والكتابة، غير أن المدارس حسب شو، لا تعير اهتماما للرياضيات الحديثة والقواعد الأولى للحساب (arithmétique) والجبر والمخترعات، رغم أن أجداد "المحمديين" يقصد المسلمين، بالتأكيد هم مخترعو هذه العلوم[43].

يصف القس توماس شو العادات الاحتفالية ويخصص منها تلك التي تقام للمتفوقين من التلاميذ، فيلبسهم أولياؤهم أجمل الملابس ويحملونهم على الجياد المسرجة والمزخرفة يَتجول بهم زملائهم وسط هتافاتهم في الأزقة، ويبذل لهم أولياؤهم وأصدقاءهم والأقارب والجيران الهدايا، ويُعجِلون بتهنئة الأب والأم بنجاح ابنهما.[44]

4- أذواق الحضر في الموسيقى.

1.4- الموسيقى عند الحضر.

1.1.4- بعض ما يميز الموسيقى عند الجزائريين.

يقارن شو الموسيقى المحلية بما كانت عليه في أوروبا في القرن الثامن عشر، فآلاتهم كثيرة ومتنوعة، لكنهم لا ينظرون للموسيقى كعلم قائم بذاته وهذا الحكم فيه إجحاف في حق تاريخ الموسيقى العربية التي لها مصنفات ذات أسس علمية تختلف في منهجها عن

40 سعد الله، المرجع السابق، ج1 ص 192.

41 محمد بن شوش: الاحتلال الفرنسي (1830 – 1870)، رسالة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر إشراف الدكتور بن يوسف تلمساني، جامعة بن يوسف بن خدة-الجزائر كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، السنة الجامعية 2007-2008. ص 5.

42 شو، المصدر السابق، ص 78.

43 نفس المصدر، ص ص 87، 88.

44 نفس المصدر، ص 78.

الموسيقى الأوربية الحديثة،[45] ربما يقصد جهلهم للسولفاج الذي كانت تبنى عليه الموسيقى الأوربية فلا يسجلونها على طريقة السولفاج بل يعتمدون على ما يعرف بالطبوع ومقامات والموازين التي تحفظ وتنقل عن طريق السماع، وهي كثيرة ومتنوعة بين المشرق والمغرب.[46]

2.1.4- الموسيقى الأندلسية والتركية عند الحضر.

تتميز الموسيقى الأندلسية بالتناغم و التناسق و تنوع آلاتها بين أصناف الناي الخشبي، و آلات الرباب، و الكمان بوترين، والعود الجهير بوترين، وهو أكبر من العود الأوربي، و آلات الغيتار بمختلف الأحجام،[47] كما يُستعمل الطار (من أنواع الدف)، فالذي يحمل اطاره الأسطواني الخشبي قطع دائرية من النحاس تحدث أصواتا رخيمة تغطي الفراغات اثناء الأداء الموسيقي و يحفظ العازفون كل الطبوع و المقامات الموسيقية عن ظهر قلب دون معرفهم للنوتات، لكنهم يؤدونها بإتقان كبير معتمدين على حاسة السمع للمحافظة على الانسجام في أداء الألحان. وقد حضر شو بعض مجالسهم الغنائية التي يجتمع فيها من عشرين الى ثلاثين موسيقيا يداومون على العزف طوال الليل.[48]

يصف شو موسيقى الأتراك بأنها أكثر اتساقا من نظيرتها البدوية، وتتلخص آلاتهم في الكمان ذي قبضة يد طويلة يستعملونه مثل الرباب، وآلة تشبه القانون بأوتار نحاسية. وتكاد تجتمع بعض الفرق الموسيقية يوميا بإلحاح من البايات والباشوات باستخدام أعداد كثيرة من الأبواق والنايات والطبول والصنوج (cymbale) يعزفون بها ألحانا رسمية أو عسكرية يقصد فرق الموسيقى العسكرية.[49] ويدعم شالر ملاحظات شو، فسكان الجزائر لهم عبقرية في ممارسة الموسيقى بتوظيف عدة آلات يرجح أنها من اختراعهم، لكنهم لا يهتمون بتدريسها كعلم مثلما هو الحال عند الأوربيين[50]. وشغف الجزائريين بالألحان

---

45 هناك مصنفات مصدرية كثيرة ألفت حول علم الموسيقى في الحضارة الإسلامية وانعقدت عدة مؤتمرات دولية، بينت أن الموسيقى علم قائم بذاته. (انظر على سبيل المثال فهرس كتاب حسن علي محفوظ معجم الموسيقى العربية في عرض كل ما يبين أن الموسيقى كانت علما قائما بذاته (انظر: حسن علي محفوظ معجم الموسيقى العربية، المؤتمر الدولي للموسيقى العربية ببغداد 1384هـ/1964م، مطبعة دار الجمهورية بغداد، 1964. ص 213 فما بعدها)

46 شو، المصدر السابق ص 89، 90.

47 نفس المصدر، ص ص 90، 91.

48 نفس المصدر، ص 92.

49 نفس المصدر، ص ص92-93.

50 شالر، المصدر السابق، ص 89.

والموسيقى يصل الى أداءها عند الخروج للقتال. فيقول نقيب أشراف مدينة الجزائر محمد الشريف الزهار في مذكراته عن الحملة الاسبانية على الجزائر سنة 1198هـ /1784م، أن المجاهدين كانوا يخرجون لمواجهة الغزاة الاسبان وسكان المدينة يضجون بالدعاء والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وتصحب المقاتلين آلات الطرب والجواق كأنهم خارجون للنزهة.[51]

5 - اللباس والثقافة الغذائية عند سكان المدن.

1.5- بعض ما يلبسه الحضر من الرجال.

يضع سكان المدن مثل قصبة الجزائر (من أتراك وأندلسيين وأغنياء البدو) على رؤوسهم طرابيش حمراء اللون، من صناعات محلية يُلَفُ حولها عمامات مزينة بخيوط حريرية وقطنية، متنوعة في طياتها حسب المكانة الاجتماعية لبعض العائلات، والمرتبة العسكرية في الجيش[52]؛ ويتأزر بعض الناس بالحائك،[53] ويضعون فوقه أحيانا سترة، ويتكسون بالقميص الذي يُعرف بالجلابة ويلبسون البرنس،[54] وقد يقوم الحرفيون خاصة بنزع الحائك والبرنس في حالة ممارسة نشاطاتهم المهنية[55]؛ ولا يفوت القس توماس شو من تشبيه هذا القميص بما هو مُسجل في الروايات الانجيلية، لما تخلى عيسى عليه السلام عن ثيابه ولف جسمه بقطعة من قماش قبل تعرضه للتعذيب والاغتيال حسب معتقد

51 - أحمد توفيق المدني، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار، نقيب أشراف الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974. ص33.

52 شو، المصدر السابق، ص 113.

53 يقول شالر عن الحائك أنه من أقدم الألبسة عند الجزائريين واللبيين، مصنوع من الصوف طوله بوصتان في العرض في قطعة واحدة ويحتمل أنه الطوجة الرومانية وقد شاهد في المتحف الملكي في نابولي تمثلا للإمبراطور أغسطس في ثوبه الامبراطوري، وهو يشبه الحائك الذي ذكره الرحالة شالر، وسعره يختلف باختلاف أنواعه الصوفية والحريرية كما يستعمل غطاء للفراش لما يوفره من دفئ، يكرر شالر تقريبا بعض المعلومات التي سجلها شو كقوله أن الحائك لباس غير مريح لأنه يتحتم على لابسيه إمساكه دائما. شالر، المصدر السابق، ص ص 84، 85.

54 يقدم وليم شالر وصفا للبرنس فيقول إنه يلصق في وسطه القلمون يلبسه الرجل أو يحمله على كتفه، والبرانس أنواع كثيرة في جودة مادتها من الصوف الناعمة الى التي تمزج بالحرير، وهناك البرنس الصيفي والبرنس الشتوي. نفس المصدر ص 93.

55 شو، المصدر السابق، 114.

النصارى[56]؛ ويلف الحضر حول البطن حزاما أو نطاقا، يستغله الرجل لوضع ما يحمله من مال وتثبيت خنجره وسكينه، أو الدواة والقلم إذا كان من الكتاب[57].

يلبس الحضر رجالا ونساء لباسا داخليا أو سروالا[58] قصيرا خاصة عند الخروج من البيت أو عند استقبال الضيوف، وتزين سراويل الفتيات بطروز مزخرفة بأنواع الخيوط الحريرية.[59] ويقدم وليم شالر وصفا مشابها لما عرضه شو، فالفتاة غير المتزوجة ترتدي القلنسوة وتلبس سراويل مختلفة الألوان حتى يعرف حالها[60]، وتزين النساء أعينهن بالكحل لحرصهن على إظهار جمالهن[61]. و الرجال يكتسون بالأقمصة و السترات و السراويل الفضفاضة التي تنزل الى ربلة الساق (باطن الفخذ) الملفوفة بالحزام، يضع فيه بعض حوائجه الخاصة كالمسدس، ومحفظة النقود، ويعلق عليه خنجره، وتختلف جودة الألبسة بحسب طبقات المجتمع[62].

2.5- بعض ما يميز لباس المرأة الحضرية.[63]

تتخلص المرأة لما تكون في بيتها من جميع الألبسة، بما فيه السروال القصير وتكتفي بإزار يصل الى مستوى البطن[64]، لكن عند الخروج الى الشارع يكاد يستحيل رؤية وجوه النساء[65]، وعند خروجهن الى الريف والفحص يقل حرصهن على اخفاء الوجه الا في

---

56 نفس المصدر، ص 115.

57 نفسه.

58 يضيف شالر أن النساء في القرن التاسع عشر يرتدين قميصا صغيرا يُصنع عند العائلات الغنية من أرفع الأقمشة، ويتسربلن بالسراويل التي تنزل حتى العقب، ويلبسن الحذاء بدون جوارب. (شالر، المصدر السابق، ص 85).

59 شو، المصدر السابق، ص، 116.

60 نفس المصدر، ص ص 85-86.

61 هي عادة ينسبها القس شالر الى بعض أنبياء بني إسرائيل، والى المشارقة عامة، والاغريقيات، والرومانيات. (نفس المصدر، ص 119).

62 نفس المصدر، ص 83.

63 لم يكن باستطاعة الأجانب رؤية المرأة المسلمة سافرة إلا إذا وُصفَتْ لهم من طرف بعض الخادمات. وقد قدمت الباحثة صوفي فاطمة الزهراء بحثا مهما لنماذج لباس المرأة الجزائرية في الريف والمدينة. (أنظر: فاطمة الزهراء صوفي، اللباس التقليدي للعروس في الجزائر -من خلال بعض النماذج- رسالة لنيل شهادة الماجستير، جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان، كلية الآداب و العلوم الانسانية و العلوم الاجتماعية، قسم الثقافة الشعبية، السنة الجامعية1423-1424ه /2002-2003م. ص ص 64 – 69).

64 شو، المصدر السابق، ص 116.

65 نفس المصدر، ص 86.

حالة اقتراب شخص أجنبي.[66] ويكرر شالر نفس الملاحظة في القرن التاسع عشر بقوله أن الأجانب قلما تتاح لهم فرصة لرؤية امرأة عربية، ولا يعرف عن جمالهن إلا ما تمكن منه في فرص عابرة، أو وصف النساء الأجنبيات لجمالهن.[67]

لا تتخلى المرأة عن حليها في كل الأحوال وتزيين العينين بالكحل،[68] ويقول شو أن المرأة تحافظ على جمالها، الذي يشبهه بجمال "الإنقليزيات"، الى سن الثلاثين إذا بقيت غير متزوجة، لكن في الغالب يتم تزويجهن في سن مبكر، في حدود سن الإحدى عشر سنة، فتجد لها أحفادا عند الرابعة والعشرين، مما يجعلها تشهد حياة عدة أجيال من الاحفاد. [69] وهي نفس الملاحظة التي يقدمها وليم شالر، فالمرأة تصل الى النضوج في وقت مبكر ويحدث أن تتزوج في سن الثانية عشر ولكنها تذبل بنفس السرعة ويبدأ جمالها -حسبما بلغه- في الزوال في سن الخامسة و العشرين.[70]

3.5- أمثلة عن الثقافة الغذائية للحضر.

تتنوع أطباق الحضر، فإضافة الى أنواع الحساء والدجاج المشوي فانهم يتغذون بمختلف اللحوم المقلية أو المحمرة.[71] وتقدم على موائد الأغنياء أعدد كثيرة من الأطباق، منها أطباق اللوز والتمر ومربى الفواكه والأجبان والعسل وغيرها من الأطعمة.[72] وألحق بها وليم شالر أعدادا كثيرة من المواد الغذائية، غير أن استهلاكهم للحم البقر قليل، والقهوة هي المشروب الشعبي في مجالسهم.[73] وعادة ما يكرم الأغنياء ضيوفهم في الولائم فيقدم صاحب العرس أكثر من مائتي طريقة في طهي نوع واحد من المأكولات.[74]

6- ثقافة العمران عند الحضر.

1.6- الوظيفية، الراحة والرفاهية في الثقافة العمرانية للحضر.

---

66 نفس المصدر، ص 118.

67 شو، المصدر السابق، ص 79.

68 نفس المصدر، ص ص 132-134.

69 نفس المصدر، ص ص 134-135.

70 شالر، المصدر السابق، ص 79.

71 شو، المصدر السابق، ص122.

72 نفسه.

73 ومن أطعمة الجزائريين الخبز ولحم الضأن والسمك والحليب والزبدة وزيت الزيتون والزيتون والفواكه والخضروات والكسكسي بمختلف أطباقه والخمر، إلا أنه يستدرك فيقول أنهم لا يتناولون الخمر، و لا يشربون سوى الماء. (شالر، المصدر السابق، ص ص 87-88).

74 شو، المصدر السابق، ص 123.

لاحظ شو اهتمام سكان مدينة الجزائر بالهندسة المعمارية وشغفهم الكبير في انجاز مساكنهم بإتقان، فينفقون الأموال الضرورية لهذا الغرض ويكلفون لتشييدها أمهر الحرفيين، حتى تكون مريحة لساكنيها، واسعة الغرف متعددة المرافق، مطابقة لتعاليم دينهم، ومناسبة لتقاليدهم في فصل أمور الحريم عن الأجانب. يحيط بالدار جدران عالية، نجد لها عادة شرفة أو نافذة واحدة تطل على أزقة ضيقة[75] ولهذه البيوت الكبيرة[76] باب واحد، في مدخله سقيفة تتصل بالفناء، وهو الطابق الأرضي للدار مبلط بالرخام، وفي وسطه تقام عادة نافورة مائية.[77]

يفرش الفناء أ وما يعرف بو سط الدار بالزرابي يجلس عليها أهل الدار للحديث أو المسامرة، وفي فصل الصيف الحار يرفع فوقه ستار للتقليل من شدة الحر.[78]

تبنى الديار بعدة طوابق ترفعها أعمدة؛[79] تنقسم الى بيوت مستقلة عن بعضها لها أبواب تتصل برواق يحيط بالفناء ويطل عليه. وعادة ما تكون البيوت كبيرة، وقد تسكن هذه البيوت أكثر من أسرة، عادة ما يكونون من الأبناء الذين يفضلون البقاء مع أوليائهم بعد الزواج، وفي ظروف خاصة ترتبط بالقدرات المالية، تشترك بعض الأسر في كراء دار واحدة.[80]

يُحاط سطح الدار بأسوار من جهاته الأربعة، يفصل أحد هذه الأسوار بين الدارين المتجاورين، فتكون ديار القصبة متصلة تُمكن الساكنة من الانتقال عبر السطوح دون المرور على الأزقة اختصارا للمسافات.[81]

---

75 شو، المصدر السابق، ص 98.

76 يقدم شالر أبعاد منزل مربع الشكل يقدر طول الضلع بـ 64 قدم وارتفاع البيت 42 قدم، ثلث الدار يشكله الطبق الأرضي أو الفناء حيث توجد في قاعدته المخازن والصهاريج؛ وبقية البناية أي 28 قدما هي عبارة عن طابقين يحيطون الفناء المفروش من المرمر سعته 30 قدم مربعا، ويقوم كل طبق على اثنتي عشر عمودا تربطها أقواس إهليجية من المرمر الايطالي. (شالر، المصدر السابق، ص 94).

77 شو، المصدر السابق، ص ص93، 98.

78 نفس المصدر، ص 95.

79 يربط الباحث بلبراوات بن عتو سبب تعدد طوابق ديار المدينة وضيق شوارعها بسبب انغلاق المدينة بالأسوار، وهي في الحقيقة ميزة للمدن المحاطة بالأسوار. (أنظر: بلبراوات بن عتو، مرجع سابق، ص 41).

79 شو، المصدر السابق، ص 96.

80 نفسه.

81 نفس المصدر، ص 100.

تستغل السطوح لنشر غسيل الملابس وتجفيف التين والعنب ومواد أخرى لم يذكرها شو كتجفيف الكسكسي تحت أشعة الشمس. ويصعد الى السطح في المساء ساكنة الدار[82] للاستفادة من لطافة الجو، وقضاء أوقاتا من السمر أو أداء الصلاة الواجبة منها والنوافل.[83] وفي سطوح بعض الديار الكبيرة بيت صغير من غرفتين فوقه سطح صغير خاص به. ويبنى بمدخل الدار فوق السقيفة بيت صغير مجهز بأرقى الأثاث مثل بقية بيوت الدار تخصص عادة للضيوف.[84] ويستقبل صاحب الدار الأجانب والأقارب في السقيفة، إلا القليل منهم الذين يُسمح لهم بالدخول الى فناء الدار في حالات خاصة كالأعراس والمآتم، أما الغرف فلا يدخلها الأجنبي عن البيت إلا عند الضرورة القصوى.[85]

تتصل بالسقيفة سلاليم تؤدي الى الطوابق العلوية للدار، ولكل طابق باب مستقل يبقى مغلقا حتى يُحافظ على خصوصية أهل البيت ويُوفر لهم شروط الراحة، وعدم الازعاج، خاصة النساء اللائي لهن الحرية بارتداء أجمل انواع الألبسة والحركة دون الشعور بمضايقة غير المحارم ، أما باب السطح فيبقى موصدا حتى تُمنع الحيوانات المستأنسة في الدور من تلويث مياه الأمطار التي يتم تجميعها بواسطة مجاري تنزل الى الصهاريج المبنية تحت فناء البيت.[86] ويقدم شالر في القرن التاسع عشر وصفا مشابها للتفاصيل التي يقدمها شو، في جمال وإتقان تشييد البيوت وهندسة طوابقها من مدخل الدار وسقيفتها إلى سطحها مرورا على الفناء والطوابق.[87]

تقوم العائلات الغنية بتأثيث بيوتها بأرقى أنواع الأثاث مثل الزرابي الفاخرة والأفرشة الديباجية التي يفضلون الجلوس عليها عوض الكراسي، متكئين على نمارق مصفوفة على امتداد جدران الغرف.[88] ويتخذ أهل البيت للنوم أفرشة على مصاطب مرفوعة عن الأرض.[89]

---

82 يقول وليم شالر أن سطوح البيوت محرم على الرجال بالنهار، فهي وقف على الإماء خاصة، ولم يذكر أن الحرائر لهن حق الصعود إليها. (شالر، المصدر السابق، ص 96).

83 شو، المصدر السابق، ص ص99، 100.

84 نفس المصدر، ص ص100-101.

85 نفس المصدر ، ص ص93-97، 94.

86 نفس المصدر، ص 97-99.

87 شالر، المصدر السابق، ص ص 95-96.

88 شو، المصدر السابق، ص 96-97.

89 نفسه.

تزين جدران الغرف بأزهى أنواع الزخارف، أما سقوفها فهي خشبية أرضيتها إما من الآجر الأحمر او البلاط.[90]

تطل الديار على أزقة ضيقة تتابع في جانبيها الدكاكين،[91] يذكر منها شالر دكاكين الاسكافيين والحلاقين والمقاهي، يتخذها المداومون عليها للترفيه بلعب الشطرنج واحتساء فناجين القهوة ويلتقي في هذه الأماكن العامة مختلف فئات المجتمع يناقشون فيها قضايا السياسة والأحداث العامة.[92]

2.6- وصف شو للمساجد.

وصف لنا شو المساجد، فأشار الى المحراب الذي يوحي للمصلين حسب رأيه بوجود خفي لله سبحانه وتعالى.[93] وهو يعبر بذلك عن جهله بمعاني العبادة عند المسلمين أو ربما هو اسقاط لتمثلات ذهنيته النصرانية على واقع حياة المسلمين، وتعلو المسجد صومعة مربعة ترفع فوقها راية، ويتخذها المؤذن للأذان[94]؛ ويقول إن الأغنياء أصحاب الأراضي والأملاك ينفقون على المساجد ويوفرون أجور وحاجات المفتي والإمام والعاملين فيها.[95]

7 - جوانب من الأوضاع الاجتماعية لسكان الحواضر.

1.7- عدم الاستقرار الاجتماعي.

يصف الاوضاع الاجتماعية في عموم البلاد الجزائرية في الفترة ما بين 1720 و1732م بأنها كانت غير مستقرة بسبب السياسة الاستبدادية التي كان يمارسها الحكام وأعوانهم مما أثر سلبا على تطور المجتمع الجزائري،[96] لكن يبدو أن القس قد وقع في خطإ التعميم، فأوضاع المدن والحواضر الكبرى كانت تعرف استقرارا اجتماعيا تؤكده ملاحظاته عن حياة سكان الحواضر الهادئة ويومياتهم واحتفالاتهم وأعيادهم.[97]

---

90 شو، المصدر السابق، ص 69-97.

91 نفس المصدر، ص94.

92 نفس المصدر، ص 97.

93 نفس المصدر، ص 102.

94 نفسه.

95 نفسه.

96 نفس المصدر، ص 77.

97 انظر الى أحوال الجزائر ما قبل الاحتلال الفرنسي من خلال تقارير ج. ا. هابنتسرايت الذي زار الجزائر سنة 1732 الذي كان يكتب تقاريره اليومية الى الملك أغسطس الثاني ملك بلونيا الذي كلفه

2.7- بعض ما تعلق بالزواج والطلاق عند ساكنة المدن.

يقدم لنا الرحالة شو وصفا عاما للزواج في المدن، فينعقد الزواج باتفاق بين أولياء الزوجين على قيمة المهر وعدد الألبسة والحلي والعبيد الذين يخدمون الزوجة في البيت؛ ومن التقاليد المعمول بها ألا يظهر الزوج أيام العرس حتى يوم الدخول،[98] أما الطلاق فهو في عصمة الرجل الذي يطلق زوجته بمشيته، مع حفاضها على المهر، ولا يمكنه مراجعتها الا بعد زواجها من رجل آخر.[99] ويُظهر شو هنا جهله بأحكام الشريعة الإسلامية التي تبيح للزوج طلقتين اثنتين بائنتين يمكنه فيها مراجعة طليقته.

3.7- بعض ما تعلق بالمآتم.

التفت شو لوصف المآتم أكثر من الأفراح وكان قد لمح إليها من خلال عرضه أذواق السكان الموسيقية وألبستهم الجميلة. فذكر زغردة النساء في الأفراح، بل حتى في المآتم، قد يقصد زغردة النساء عند خروج جنازة المعمرين منهم ومن رأوا فيهم الصلاح، وتقوم بعض العائلات بكراء النواحات اللائي يقمن بدورهن على أحسن وجه حتى أنهن يؤثرن على الحاضرات فيشعرن حقيقة بالحزن على الميت.[100]

تقام صلاة الجنازة على الميت وقت صلاة الظهر، أو بعدها ويرافقه الى المقبرة الحاضرون الذين يمشون بخطوات سريعة للوصول، مرددين في الطريق التهاليل وآيات من القرآن،[101] أما تعزية أهل الميت فتكون بقول "البركة في راسكم".[102]

في الشهور الثلاثة الأولى من الوفاة تتجه نساء عائلة المتوفى الى قبره مرة في الأسبوع -هو لا يشير الى زيارة القبر في اليوم الموالي للدفن و في اليوم الثالث- أما عشاء الميت فلم يذكر وقته و هو يقام عادة في اليوم الثالث من الوفاة.[103]

بالرحلة ليقدم له مشاهداته عن واقع الجزائر. (انظر: موسى بن موسى، إيالة الجزائر والجزائريون، أحوالهم، معاملاتهم، وعلاقتهم بالسلطة في النصف الأول من القرن 18 م في نظر الرحالة الأوربي ج. ا. هابنسترايت أنموذجا (Johann Ernst Hebenstreit) في: **مجلة مدارات تاريخية** – دورية دولية محكمة ر بع سنوية المجلد الثاني – العدد الخامس -مارس2020 . ص ص 342- 363).

98 شو، المصدر السابق، ص 133.

99 نفسه.

100 نفس المصدر، ص، 135.

101 يقارن وصفه لجنازة المسلمين بجنائز النصارى الذين يمشون بسكينة وخشوع وفيه إحصاء بتفضيله جنازة النصارى على جنازة المسلمين.

102 نفس المصدر، ص 103.

يقبر الموتى من الأولياء، وأحفاد بعض العائلات الذين يحسبون من الشرفاء في فناء بجانب بعض المساجد، ولكل ميت قبره الخاص، ولبعض العائلات داخل المقبرة مدافن خاصة مصورة، بعض مقابر الأغنياء تُشيد عالية، وقد تقام عليها القبب، وللقبر جنبتان وشاهدان يُرقَمُ على الذي بجهة الرأس اسمه، وتزين بعض القبور بالنباتات الزهرية.[104]

4.7- يوميات سكان المدينة.

ينهض سكان المدينة باكرا فيؤدون الصلاة، ثم يذهبون الى أعمالهم حتى الساعة العاشرة، فيتناولون الفطور ثم يعودون للعمل حتى صلاة الظهر، حيث تتوقف جميع الأشغال وتغلق الحوانيت،[105] ويتناولون عادة العشاء بعد صلاة المغرب، او عند الغروب؛ وبعد صلاة العشاء ينام الناس مباشرة، ويبدأ حراس المدينة دورياتهم الليلية.[106]

اما العاطلين عن العمل فيقول عنهم القس شو، أنهم يقضون يومهم عند الحلاقين في الأسواق والمقاهي، وبعض الشباب الأتراك والأندلسيين والجنود غير المتزوجين يخرجون للتنزه واللهو في الفحوص، رغم أن ذلك منهي عنه في دينهم. ويضطر القضاة عادة للتسامح معهم لأسباب لم يذكرها شو،[107] لعلها تعود إلى مكانة أوليائهم فهم في الغالب من أبناء أصحاب النفوذ والجاه في المدينة.

الخاتمة:

يتكلم شو عن طبقات المجتمع ولا يُفصل في أوضاع عناصر السكان من أهل الكتاب، اليهود والنصارى ومكانتهم الاجتماعية مثلما يفعله شالر، ولا يتكلم عن عناصر السكان من غير الأتراك والكراغلة من مهاجرين داخليين الذين استقروا في الحواضر، مثل بعض عرب القبلة والإباضيين وسكان بلاد القبائل ومهاجري بسكرة وجيجل،[108] ولم يتطرق للمواسم والأعياد،[109] ولم يصف كثيرا من الأوضاع الاجتماعية كتعدد الزوجات،[110]

---

103 شو ،المصدرالسابق، ص ص103، 104

104 نفس المصدر، ص 103.

105 نفس المصدر، ص 124.

106 نفسه.

107 نفس المصدر، ص 124.

108 شالر، المصدر السابق، ص 90 فما بعدها.

109 نفس المصدر، ص 67.

ولم يتوسع شو مثل شالر في وصف الحمامات والمدارس وحياة العبيد. وهذا يعود الى طبيعة التأليف الذي يغلب عليه الطابع الوصفي الجغرافي.

يجب التنبه أن الرحالة توماس شو ينظر الى واقع الجزائر عامة والجانب الاجتماعي خاصة من زاوية استشراقية، فقد كان ينسق في عرضه هذا مع المعهد الملكي البريطاني، ويظهر في تأليفه تأثره بانتمائه الديني، فينعت المسلمين بالمحمديين "Mahométants"،[111] ويُغيب المصادر الإسلامية، ويفضل الاستشهاد بأمثلة من التاريخ الإغريقي والروماني في وصف العادات القديمة للسكان ومعيشتهم، ولا يستغني عن الروايات التوراتية والانجيلية في مقارناته،[112] والأمثلة في هذا المجال كثيرة في وصفه للأوضاع الاجتماعية.

رغم ذلك فقد أفادنا في فصل واحد من كتاب رحلته عن بعض المشاهدات المفيدة نذكر منها اهتمام سكان الحواضر بتعليم أبنائهم، وأذواقهم الفنية وثقافتهم الموسيقية، وشغفهم بالهندسة المعمارية ورفاهية ديارهم، وصف المساجد، ومراسيم الجنائز والمقابر، وماله علاقة بالثقافة الغذائية للحضر، وحياتهم اليومية، وعاداتهم في المآتم ونظرتهم للأجانب.

قائمة المصادر المراجع:

1. المصادر والمراجع العربية:

بن شوش محمد، الاحتلال الفرنسي (1830-1870) رسالة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف الدكتور بن يوسف تلمساني، جامعة بن يوسف بن خدة – الجزائر، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، السنة الجامعية 2007-2008/1428-1429 هـ.

بن عتو بلبراوات، المدينة والريف بالجزائر في أواخر العهد العثماني، رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة وهران، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم التاريخ والآثار، 2007-2008.

---

110 مثلما نجده عند وليام شالر، يقول شالر أن عددا قليلا من الجزائريين الذين يستفيدون من تعدد الزوجات، ويلحق بالمرأة الواحدة الإماء باختلاف مكانة الرجل الاجتماعية (انظر: شالر، المصدر السابق، ص 86).

111 شو، مصدر سابق، ص 77.

112نفس المصدر، ص 107

بن عثمان خوجة حمدان، المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، الوكالة الوطنية للنشر والإشهار، 2005.

بن موسى موسى،إيالة الجزائر والجزائريون، أحوالهم، معاملاتهم، وعلاقتهم بالسلطة في النصف الأول من القرن 18 م في نظر الرحالة الأوربي ج. ا. هابنتسرايت أنموذجا Johann Ernst Hebenstreit ، **مجلة مدارات تاريخية**، المجلد الثاني، العدد الخامس، مارس2020 .

سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر القافي، ج 1، 1500-1830، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998.

شالر وليام، مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر 1816-1924، تعريب وتعليق وتقديم اسماعيل العربي العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.

صوفي فاطمة الزهراء، اللباس التقليدي للعروس في الجزائر -من خلال بعض النماذج- رسالة لنيل شهادة الماجستير، جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان، كلية الآداب و العلوم الإنسانية و العلوم الاجتماعية، قسم الثقافة الشعبية، السنة الجامعية1423-1424ه /2002-2003م.

علي محفوظ حسن ، معجم الموسيقى العربية، المؤتمر الدولي للموسيقى العربية ببغداد 1384ه /1964م، مطبعة دار الجمهورية، بغداد، 1964.

عمران عبد الحميد، قبائل الشرق الجزائري: قراءة في بعض العادات والذهنيات حسب الدكتور توماس شو (Thomas Shaw) من خلال كتابه (رحلة في أيالة الجزائر)، في: **المجلة التاريخية الجزائرية**، جامعة محمد بوضياف بالمسيلة، ع 05، ديسمبر 2017.

كشرود حسان، بايلك الشرق دراسة طبيعية وزراعية من خلال الرحالين بايسونيل ودي فونتين والدكتور توماس شو، في: قضايا تاريخية، ع 06، 1438ه/2017م.

المدني أحمد توفيق ، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار، نقيب أشراف الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974.

هابنسترايت يوهان أرنست، رحلة العالم الألماني : ج. أو.هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس (1145ه 1732م) ، ترجمة و تقديم و تعليق ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2008 .

الورثيلاني الحسين بن محمد،نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار المشهورة بالرحلة الورثلانية، تصحيح محمد بن أبي شنب، مطبعة بيير فونتانا الشرقية، الجزائر، 1326ه /1908م.

2. المصادر والمراجع الأجنبية:

Bages Doris, Recherches sur la topographie urbaine de Cirta-Constantine dans l'Antiquité, thèse de Doctorat en -Archéologie, sous la direction de Pierre Garmy, Université Montpelier III – Paul Valéry, Arts et Lettres, Langues et Sciences Humaines et Sociales. (s. d.).

Benachour Nedjma, Constantine de la période ottomane dans les récits de voyage de Léon l'Africain et Thomas Shaw, in: **Revue des sciences humaines**, n°29, juin 2008, Université Mantouri, Constantine, Algérie 2008.

Missoum Sakina, Alger à l'époque Ottmane –LA Médina et la Maison Traditionnelle, INAS, Alger, 2003.

Shaw Thomas,Voyage dans la régence d'Alger, ou Description géographique, physique, philologique, etc. de cet état, par le Dr. Shaw. Traduit de l'anglais par Mac Carthy, Marlin, Paris, 1830

Zizi Zehor, Thomas shaw au Proche-Orient, 1721-1722: élucidation et défense des Textes sacrés, in**: XVIIe et XVIIIe Revue de la société d'études anglo-américaines des XVIIe et XVIIIe siècles**. N°67, 2010. L'attrait de l'Orient/The Call of the East.